الكرامات والخوارق

(المقالة السابعة عشرة في أنواع الخوارق وضروب التعليل والتأويل)

النوع الحادي عشر استجابة الدعاء

قال السبكي: وهو كثير جدا وشاهدناه من جماعة: أقول هذه مسألة من أكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين المذاهب الاسلامية ويذكرونها في العقائد والمشهور أن أهل السنة يقولون بنفع الدعاء والمعتزلة ينكرونه. قال اللقاني في الجوهرة:

وعندنا ان الدعاء ينفع كما من القرآن وعدا يسمع

وقد تقدم في مقالات الكرامات الاولى ان جمهور أهل السنة يقولون بجواز وقوع الكرامة والخوارق والمعتزلة ينكرون ذلك. وقد عدّ السبكي وغيره استجابة الدعاء من الكرامات والخوارق ويلزم من ذلك أن يكون الخلاف في الدعاء فرع الخلاف في الكرامات ولكنك تراهم يخصونه بالذكر ويعدونه مسألة مستقلة ويرون الخلاف فيه أقوى ويشنعون فيه على المعتزلة مالا يشنعونه في مسألة الكرامات. ولقد انقرض المعتزلة وذهبت كتبهم ولكن المسائل التي اختلفوا فيها مع الاشعرية لايزال الكثير منها حيا يقول فيه بقولهم كثير من الناس فنحمد الله ان جعل أئمة الفريقين أرقى عقلا ودينا من ان يكفر بعضهم بعضا فلو كفر أبو الحسن الاشعري وكبار أصحابه منكري نفع الدعاء وجواز الكرامات أو وقوعها لرأيت المسلمين اليوم في شقاق شر من ذلك الشقاق

ولا تمنع أهل العلم والدين من الصلاة على موتى أكثر المتكلمين من أبناء هذا العصر، على أن الباحثين في هذه المسائل لا يسلمون من تكفير غلاة المقلدين ولكنه تكفير باللسان لا يعدو الشتم ولا يتجاوز الشاتمين، واذا مات المرمي بالكفر صلوا عليه ودفنوه بين المسلمين، ثم إنه شتم قلما يقع من المطلعين على المذاهب والعالمين بما يؤثر عن العلماء من الخلاف

الحق أقول ان الخلاف في الدعاء أقوى من الخلاف في الكرامات فان مسألة الكرامات ليست من أصول الدين ولا من فروعه ولا يوجد في الكتاب والسنة دليل على طلب حصولها ولا على مطالبة الناس بالايمان بها، وأما الدعاء فهو مطلوب بلا خلاف والآيات والاحاديث الصحيحة التي يذكر فيها كثيرة جدا، ويعجبني جعلهم محل الخلاف في نفع الدعاء لا في استجابته خاصة وأنهم لم يقل أحد من أئمة المسلمين بأن الدعاء يستجاب حتما ولا ان الاصل أو الاكثر انه يستجاب ولكنهم قالوا ان الدعاء ينفع سواء أستجيب أم لم يستجب وهذا القول حق كما سنبينه. ولو كانوا يرون ان الدعاء يستجاب من كل داع تحققت فيه الشروط التي ذكروها لما كان لهم استجابة الدعاء من الكرامات والخوارق بمعنى

وردت آيات في الدعاء ولكن يراد بها في الاكثر العبادة ومن غير الاكثر مجرد الطلب كقوله تعالى حكاية عن بنت شعيب « ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا » وأقرب الآيات الى ما نحن فيه من دعاء الله تعالى وطلب الحاجة منه توقعا للاجابة بقضائها قوله تعالى « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » وقريب منها قوله عز وجل « واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » ولكن ورد في الصحيح تفسير الدعاء في الاولى بالعبادة، روى أحمد وأبو بكر ابن أبي شيبة والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وابن حبان في صحيحه والحاكم وغيرهم من حديث النعمان بن بشير عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم انه قال « الدعاء هو العبادة » ثم قرأ « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » وفسرت الاستجابة على هذا بقبول العبادة، ومن العلماء من فسر الدعاء في الآية بطلب الحاجات والاستجابة بقضائها، وفسرت الآية الثانية بمثل ما فسرت به الاولى من الوجهين، وقد علم ان الآيتين

ليستا نصا في موضع الخلاف فيحتج بهما على المعتزلة ومن على رأيهم من أهل هذا العصر ولهذا لم يكفروا من قال بأن الدعاء لا تأثير له في قضاء الحاجات وانما عدوه مخالفا للسنة لما ورد في الدعاء من الاحاديث الصحيحة

ورد في الصحيح ان لكل نبي دعوة مستجابة، وقد قال العلماء ان المراد انها مستجابة قطعا وما عداها من دعوات الانبياء فهو محتمل للاجابة ولعدمها، أي ان الحديث لا يفهم منه ان الله لا يستجيب لنبي الا دعوة واحدة . وورد الامر بالدعاء وعدم الاستعجال بالاستجابة . وترى العلماء متفقين على ان الاستجابة تكون باحدى ثلاث وردت في الحديث — إما أن تعجل له دعوته وإما أن تدخر له في الآخرة وإما أن تدفع عنه من السوء مثلها، وللحديث طرق بعضها ضعيف وبعضها قد صحح الحاكم اسناده ولم يروه من أصحاب الصحاح والسنن الا الترمذي وقال : حسن صحيح غريب : والسبكي يجعل الاولى من الثلاث — ان أعطيها الداعي — كرامة وتعريفنا للكرامة لا يأباه ولكن يأباه قول من يجعل الكرامة من الخوارق التي تأتي على خلاف السنن الالهية في الخلق . ونحن لا نشك في ان كثيرين من الداعين قد استجيب دعاؤهم بأن سخر الله لهم من الاسباب ما لم يكن في أيديهم تسخيره ولم يكن يخطر لهم على بال كيف يجابون وقد وقع لنا مثل ذلك وحمدنا الله عليه ولكننا لا نقول الا انه جاء موافقا لسنن الله تعالى في الاسباب والمسببات على ما فيه من العناية الخفية والتوفيق الالهي

وقد اشترطوا في الدعاء شروطا منها ان لا يدعو بمحال عقلا ولا شرعا ولا عادة واذا كان الدعاء بالمحال في العادة ممنوعا وغير جدير بالاجابة لأنه من اساءة الأدب مع الله تعالى كأن الداعي يقول اللهم ابطل حكمتك في نظام خليقتك وبدل سننك في خلقك لاجلي — فكيف يتحقق في الدعاء أمر خرق العادة ؟ هذا تناف بين أقوالهم

* * *

وعندي أن الدعاء على قسمين اضطراري واختياري فاما الاضطراري فهو الالتجاء الى القوة الغيبية عند تقطع الاسباب بالانسان وسد منافذ الرجاء بالسعي . وكل مؤمن بقوة غيبية يرى نفسه ملتجئة اليها عند اشتداد البأس ، والخطر المشرف بها على اليأس : فيدعو صاحب القوة العليا ويستغيث به وعند ذلك تفتح في وجهه

أبواب الرجاء ، وتنزل عليه السكينة بعد الاضطراب ، وهذه فائدة كبرى للدعاء تتلوها فوائد أظهرها أن اليائس ينقطع عن السعي فاذا اشتد به الضيق فربما يخبط نفسه اتحارا بيده ولذلك يكثر الانتحار في قوم لا يؤمنون ، فالرجاء الذي يحدثه الالتجاء بالدعاء يعطي المضطر قوة جديدة ويهديه الى طرق جديدة يسلكها في اعادة السعي حتى ينجو من الخطر ، أو يبلغ بعض الوطر ، ويقول الاستاذ الامام : قلما وله قلب المؤمن الى الله تعالى داعيا مخلصا في حال اضطرارية كهذه الا وأجاب الله دعاه : «وهذا الفرع من الدعاء هو ميزان الايمان ومعيار التوحيد الخالص فان الله تعالى جعل أعمال الانسان في الاسباب والمسببات فالمؤمن الكامل يذكر الله عند كل سبب ويزداد ايمانا بزيادة العلم بالاسباب لما فيها من الحكمة والنظام العجيب ، والغافلون تحجبهم الاسباب عن رؤية حكمة واضعها وان كانوا مؤمنين حتى تكون الشدائد هي التي تذكرهم بما تقطع من الاسباب التي يعرفونها فيرجعوا الى من بيده ملكوت كل شيء وواضع كل سبب فيدعوه باخلاص « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون » وفي آية أخرى « واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور » وانما كان الدعاء في حالة الاضطرار معيارا للايمان لأن من يعتقد بقوة غيبية وراء الاسباب لغير الله تعالى فهو يلجأ اليها في تلك الحالة بطبعه وينطق لسانه بدعاء صاحبها وندائه . ولا توجد أمارة على الشرك أظهر من هذه الامارة وان استهان بها الذين يدعون في الشدائد فلانا وفلانا ويستغيثون بهم من صميم أفئدتهم ويولهون اليهم لا يلاحظون أنهم وسطاء بين الله تعالى وبينهم يقربونهم اليه زلفى كما يزعم أهل التأويل لان القلب في مثل تلك الحالة لا يسع شيئين فمن يدعو فلانا من المعتقدين في وقت الشدة لا يخطر في باله غيره ولا يدعوه الا وهو يعتقد أنه هو الذي يفرج كربه فهو موحد له من دون الله تعالى . واذا وسع قلبه قوتين احداهما مؤثرة في الاخرى تحملها على العمل فتعمل فهو مشرك شركا ظاهرا لا خفيا .

واذا كان — ليت شعري — هؤلاء الوسطاء المزعومون أسبابا خفية كما يدعي بعض المأولين وجوزنا ان يلجأ اليهم في وقت الضيق فني أي وقت نوجب على المؤمن ان

يلجأ الى الله تعالى وحده دون سواه ؟ ألا يوجد عند هؤلاء الذين يمتاز دينهم بالتوحيد الخالص حال يجب على العبد ان يتوجه فيها الى الله تعالى وحده لايكون في قلبه سواه من عبيده الضعفاء « وخلق الانسان ضعيفا » ؟ لااله الا الله وحده لاشريك له ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون

فعلم مما شرحناه أن هذا الدعاء أثر من آثار الايمان بقوة وراء الطبيعة فمن كان يعتقد أن مع صاحبها من يحمله على الفعل أو الترك فهو المشرك ، وهذا الاثر الذي ذكرناه هو روح العبادة وأكبر مظاهرها لانه الاثر الطبيعي للايمان ولذلك فسر الدعاء في القرآن بالعبادة في جميع الموضوعات الدينية وورد في الحديث « الدعاء مخ العبادة » رواه الترمذي وتقدم حديث « الدعاء هو العبادة » فكل من يدعى وينادى عند شدة الحاجة وتعسر الاسباب الكسبية فهو معبود لمن ناداه ودعاه « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا »

وأما القسم الثاني من الدعاء وهو الاختياري فانه من الاعمال التي تزيد في الايمان وتمده وتدعمه كسائر العبادات المطلوبة في الدين وليس أثرا طبيعيا له ولولا ذلك لما كان للتكليف به معنى . اذا قال العبد: اللهم وسع علي في الرزق : يتذكر ان سعيه في طلب الرزق من أسبابه التي هداه الله تعالى اليها بالحواس والعقل يتوقف على حفظ قواه وعلى توفيق الله بين سعيه وبين الاحوال والامور الخارجية التي يتوقف عليها النجاح فيزداد إيمانه بهذا الذكر ويزداد نشاطه باعتقاده ان الله يعينه ما راعى سننه في خليقته وأتى البيوت من أبوابها . واذا قال : اللهم اغفر لي : يتذكر انه عرضة للهفوات والخطايا وان الغفران الالهي له طريق بينها الكتاب العزيز بمثل قوله « وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » فان لم يتذكر الآية فانه يتذكر معناها الا اذا كان جاهلا بالدين مكتفيا منه بما يسمعه ممن يعيش بينهم من الجاهلين ، واذا تذكر ان الدين علم البشر ان للذنوب والخطايا آثارا سيئة في النفس وأن غفرها ومحوها انما يكون بالرجوع عن الذنب وعمل طاعة من جنسه تؤثر في النفس ضد أثره فانه يكون قريبا من العمل الصالح قال تعالى « ان الحسنات يذهبن السيئات » وقال عليه الصلاة والسلام « واتبع السيئة الحسنة تمحها »

أقول هـذا تمهيدا لبيان أن هذا النوع من الدعاء هو أحد خصال الايمان. والايمان كما ورد في الاحاديث الصحيحة قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالاركان فهذا الدعاء لايكون صحيحا الا اذا وافق اللسان فيه القلب والعمل. أعني ان يطلب المؤمن الرزق في الدنيا والمغفرة في الآخرة ونحوهما بتوجه القلب والقيام بالعمل الذي جعله الله وسيلة للرزق وسببا في المغفرة. ويستلزم هذا ماقالوه من عدم جواز طلب المحال أو المحرم شرعا لان الاول ليس له وسيلة تتوجه النفس اليها وتطلب بالعمل منهما والثاني لايطلب من الله تعالى وانما يطلب بالعمل في حال الغفلة عن الله عز وجل. ومن طلب من الله تعالى شيئاً بالتوجه النفسي الصحيح وصدق العزيمة وإعمال الفكر مع الجد في السعي من الطرق التي سنها الله تعالى والاسباب التي ربط بها المسببات وكان دعاؤه باللسان مترجما عن ايمانه بأن المسخر الاسباب والموفق بينها هو الله تعالى فان الله تعالى يستجيب دعاءه ويسهل له الاسباب ويمنحه التوفيق

هذا هو الدعاء المطلوب شرعا وفائدته في تهذيب النفس وتسديد الفكر وتقوية العزيمة ظاهرة بالبداهة ؛ والوصول به الى المقاصد التي يطلبها الداعي ثابتة بالتجربة وقريبة من المعقول . وما أظن المعتزلة ينكرون ذلك وإنما أنكروا فيما أرى فائدة الدعاء القولي البحت والمحققون من أهل السنة يوافقونهم على هذا لاسيما الصوفية علماء النفس والاخلاق. قالت رابعة العدوية رحمها الله تعالى: استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير. وقال الشيخ محيي الدين بن عربي :

بذكر الله تزداد الذنوب وتطمس البصائر والقلوب

وانما يعني الذكر مع الغفلة فانه كالاستهزاء بالله تعالى. وورد هذا المعنى في الآثار عن السلف. قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى: الاستغفار بلا اقلاع توبة الكذابين. وفي الاحياء عن بعض الحكماء: من قدم الاستغفار على الندم كان مستهزئا بالله عز وجل وهو لا يعلم. وقال الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى: لايقولن أحدكم أستغفر الله وأتوب اليه فيكون ذنبا وكذبا ان لم يفعل ولكن ليقل اللهم اغفر لي وتب علي. وجملة القول ان الدعاء مخ العبادة وروحها وميزان الايمان ومعيار الاخلاص وسلامة التوحيد وان فائدته في الدنيا مشهورة وان المحرومين منه لحرمانهم من سعادة الايمان الخالص

عرضة للانحطار ، اذا استولت عليهم الهموم والاكدار ؛ وأن فائدته في الآخرة أعظم ؛ وان استجابته اذا وجد على حقيقته التي شرحناها كثيرة يعرفها المؤمنون الصادقون ؛ وينكرها الملحدون والشاكون ؛ وان هذه الاستجابة ليست من الخوارق الحقيقية ، ولكنها من التوفيق الإلهي والعناية الربانية ، واذا كان أمر العناية فيها غريبا في صورته غير معهود يصح ان تسمى كرامة . وقد بسطنا هذه المسألة فلم نقصر البحث فيها على موضوعنا لما نعلم من اشتباه الامر فيها على الذين يحسنون ان يعقلوا الدين ويفقهوه ، ومن جهالة المقلدين الذين يسلمون بكل ماينقل عن الميتين وان لم يفهموه ، ونرجو أن يقبل كلامنا هذا كل مؤمن بان لله كون فاعلا مختارا ، وان للناس حياة بعد هذه الحياة ، كما نرجو ان يراجعنا من يتوقف في صحة شيء مما كتبناه أو في فقهه وفهمه والله الموفق للصواب

شبهات النصارى وحجج المسلمين

(النبذة الخامسة في رد شبهاتهم على القرآن العزيز)

(الشاهد الحادى عشر) قال المعترض ، الذي كتب مالا نعتقد : وعدّ في جملة هذه المناقضات مئة وخمسا وعشرين آية متفرقة في ثلاث وستين سورة منه تأمر بالصفح والتولي والاعراض والكف عمن لم يكن مسلما وقد نقضتها كلها آية السيف وهي قوله في سورة التوبة « فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ » (قال) وهذا في زعمهم كلام الله يأمرهم في مئة وخمسة وعشرين موضعا من كتابهم بالصفح عمن خالفهم في الدين ثم يبطل ذلك كله اعتباطا : ثم هذي بعد ذلك بما بعد شتما لاشتباها فنعرض عن ذلك عملا باحدى تلك الآيات التي أشار اليها ونخص الكلام بدفع الشبهة فنقول

نعوذ بالله من الغلو في التعصب الذي يعمي ويصم ويوقع المرء في مثل الفضيحة التي وقع فيها هذا الكاتب المعترض فقد جمع آيات الفضائل العالية والآداب السامية وحسد المسلمين عليها ولم يجد سبيلا الى الاعتراض عليها الا بزعمه انها منقوضة بآية سيف والتناقض انما يكون في القضايا الخبرية ، لا في الاوامر والنواهي التهذيبية ،